الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

م	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٦٧ — ١٩ رمضان سنة ١٣٥٨ — أول نوفمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

فهرس العدد

صفحة			
١٠١٨	حبيبي القديس الفاسق ...	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد المجيد حمدي ...
١٠٣٦	كيف فقدها	أقصوصة مصرية	بقلم الآنسة جميلة العلايلى ... ...
١٠٤١	إنتقام حبيبة	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ...
١٠٤٤	بخنوت	للكاتب الفرنسى جى دى موباسان	بقلم الأديب السيد محمد العزاوى ...
١٠٤٨	الزوج التائب	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ (ع ١٠) ... ...
١٠٥١	الغاية تبرر الواسطة	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

حبيبي القديس الآثم

[قصة حصلت على جائزة ١٥٠ جنيها]

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« لقد اعتزمت أن تطالب بحقها كاملا فى الأمومة إلى أن ... »

* * *

أظن أننى أحببت الدكتور روجر مكفاى من اللحظة الأولى التى رأيته فيها ، فقد أقبل علىّ وأنا راقدة ملفوفة فى ضماداتى ، فكانت تحيته البشوشة كأنها شعاع من أشعة الشمس المشرقة وقد قال :

« كيف حال بطلتنا الصغيرة اليوم ؟ »

ووضع على صدرى وهو يحيينى وردة حمراء طويلة الساق لا تمكن من استنشاق شذاها الزكى القياح إذ لم يكن فى مقدورى أن أرفع يدى أو حتى أحرك رأسى ، وكل ما كنت أستطيعه هو أن أعبر عن الشكر بالنظرات

ولما صادقنى الدكتور مكفاى فيما بعد لم أملك إلا أن أجده وأن أعبده ، حتى وإن كنت لم ألبث أن عرفت أن لجورج مكفاى شخصيتين منفصلتين ومتفاوتتين : شخصية قديس فى صورة طبيب ، وشخصية رجل مندفع سخرى القلب وحشى الطباع قاس لا يرحم ... وقد مضت سنوات قبل أن أسلم بهذه الحقيقة حتى فى أحلك أوقاتى وأشدها تعاسة . وهذه الشخصية المزدوجة هى التى دفعتنى إلى كتابة هذه القصة

وليس غرضى من الكتابة هو على وجه الدقة التكفير عن خطيئتى ، ولا هو تبرير حبى لروجر مكفاى ، فإنه على الرغم من جميع ما عمله لا أزال أحبه ، ويهون على أن أضحى من أجله بحياتى وبما هو أغلى من حياتى وقد فعلت

نعم فإنه على الرغم من كرهى واحتقارى تلك الشخصية الخبيثة مازلت أحب الشخصية الأخرى العظيمة ذات الخلق السامى ، فى نفس ذلك الطبيب المحسن الشفيق الذى لا يهمل أبداً المتألمين ولا المرضى. أحب ذلك الطبيب الرفيق الذى يحب الأطفال الصغار والذى يمد يديه السحريتين للمواساة والعلاج غير منتظر أجراً ولا جزاء . تلك الشخصية لا تزال موضع حبى العميق الذى تسرب إلى أعماق قلبى فلا تقوى على محوه يد شخصيته الثانية الدنيئة

كنت لا أزال فى المدرسة لم أتجاوز السابعة عشرة من عمرى عند ما قتل أبواى وأختى الصغيرة إيلين فى حادث سيارة ... وسأتخطى ذكرى تلك الأيام المزعجة التى لا بد أن يقضيها الإنسان فى الحزن على موتاه ، فهى أيام لا يستطيع أحد التخلص منها

لم يبق لى فى الوجود بعد أبوى وأختى أحد من الأقارب غير عم لم يسمع أبى عنه شيئاً منذ سنوات حتى لم نكن نعلم إذا كان هذا العم واسمه جيم قد مات أو هو لا يزال حياً

ولم أكن أملك من المال بعد الذى أنفق على الجنازة الثلاثية من قيمة التأمين الضئيل الذى كان أبى مؤمناً به على حياته غير مبلغ لا يزيد إلا قليلاً على خمسين جنيهاً . فطلبت من مستر جون أوفر وصيى وخير أصدقاء أبى أن يودع هذا المبلغ أحد

المصارف إلى أن يأتى الوقت الذى أرجو أن أصبح فيه ممرضة تحت التجربة فى أحد المستشفيات القريبة من لندن

وكان فى وسع جون آدمز أن ينصح لى وأن يوليني صداقته ، ولكن لم يكن له من أسباب المادة ما يمكنه من مساعدتى .

على أنه قد حان الوقت الذى لبست فيه لباس ممرضة تحت التجربة الذى كنت أشتهيه ، فشعرت إذ ذاك بالسعادة البالغة . وماذا يهمنى أن يكون العمل كثيراً أن تكون الساعات طويلة ، فسيأتى اليوم الذى أصبح فيه ممرضة أصيلة . . . ولكن ما كان أضيع أحلامى !

لقد كان عملى مرضياً ، فقد كنت — على ماقالوا — أهلاً لأن يوثق بى . ولما كان عدد الممرضات قليلاً فى تلك الأيام ، فقد تصادف أن كنت قائمة وحدى بواجبات الليل عند ما شب فى المستشفى حريق هائل . . . وهل فى مقدورى أن أنسى هول تلك الليلة الفظيعة ! إنها لتتمثل واضحة فى ذاكرتى بمأساتها الفاجعة ، ولا يزال لها فى أذنى دوى أشبه ما يكون بدوى القنبلة تنفجر على حين غفلة فيملأ صوت انفجارها الجو هولاً وارتياعاً ! رب ! البناء المحترق يمكن تجديده — أما أنا ...

وقع الحادث المروع مفاجئاً ، فقد كان كل شىء هادئاً قبل دقيقة واحدة من وقوعه . كان كل شىء ساكناً وديعاً وداعة الطفل النائم فى حضن أمه ، وكان النسيم العليل يحرك أوراق الشجر فى لطف عند ما دوت فى الجو صيحة « النار ! النار ! » ، وارتفعت فى الجو أصوات الاستغاثة مختلطة بدقات الأجراس وصراخ الفزعين ، وبكاء الأطفال الذين كنت ساهرة عليهم ينادوننى : « ممرضتنا جودى ! ممرضتنا جودى ! » ، وكان عدد هؤلاء الأطفال ثلاثة عشر كلهم دون الثانية عشرة من أعمارهم ، فاندفعت إلى باب الغرفة ولكن اللهب والدخان صدانى فأقفلته ووقفت وراءه أسنده كأنما جسمى الضئيل يستطيع مقاومة هذا الجحيم المستعر

وتتابعت الأفكار فى رأسى مسرعة كالبرق ، ولم يكن فى هذا الجناح القديم منفذ للهرب من الحريق ، وكان يجب ترك هذا الجناح منذ زمان بعيد ولكن الحاجة الماسة للأمكنة هى التى أرغمت مجلس إدارة المستشفى على مواصلة الانتفاع به . على أن هؤلاء الأطفال يجب إنقاذهم ، ولكن كيف ؟ لقد أعاد لى صراخهم صوابى فشمرت على حين فجأة بالقوة واليقظة فصحت بصوت عال لأسمعهم « اهدأوا ، اهدأوا ، فسوف تنقذكم الممرضة جودى ، ولكن يجب أن تهدأوا وتطيعوا ما آمركم به ! »

وجريت إلى الشباك فنظرت إلى رجال المطافئ وهم يرفعون أحد سلالم الحريق . وكنت فى الطابق الثالث فما زلت أصيح وأبدى إشارات بيدى ورأسى وأصيح آمرة بما أريد حتى تنبهوا لى وفهموا إشاراتى

وفى أسرع من لمح البصر نصبوا شبكة إجابة لإشارتى . أما أنا فكنت كمن مسه جنون أجرى إلى مراقد الأطفال أحملهم الواحد بعد الآخر فألقى به من النافذة غير منتظرة أن أرى إن كان قد وصل إلى الشبكة سالما . ولم أكن أبالى بما يلفحنى من وهج النار إذ لا بد أن أنقذ الأطفال جميعاً . وكنت كلما ألقيت طفلاً أعد : واحد ... اثنين الخ إلى أن عددت اثنى عشر . وكانت ألسنة النار قد اقتربت من غرفتنا واشتدت الحرارة اللافحة ولكن لم يكن بد من أن أنقذ

الطفل الأخير فأين هو ؟ وتكاثف الدخان وخنقني ولكنني لم أكن لأبالي شيئاً ؛ ثم سمعت أنيناً ضعيفاً دلني على مكان الصغير دايفي

وما أشك في أن قوة إلهية هي التي أوصلتني إلى مكان الصغير فلففته وحملته مسرعة إلى النافذة وكانت النار قد صعدت من الطابق الثاني إلى طابقنا وكان الدخان كثيفاً فلم أر الشبكة إنما يجب انتهاز الفرصة .

ولكن لا ! لم أجرؤ أن ألقي بدايفي الصغير فقد كانت رجله مكسورة مجبسة وكنت أخشى عليه، فشددت عليه بين ساعدي ووثبت به من النافذة

لطمت ألسنة النار وجهي وساعدي وكنى وشممت رائحة شعري يحترق عند ما وضعت قدمي على عتبة الشباك لأثب ... ثم ...

لم أشعر بعد ذلك بشيء حتى عاد إلى صوابي بعد أيام وأنا راقدة في المستشفى ملفوفة في ضماداتي أحس آلاماً تمنيت أن ينقذني الموت منها ... ولو أنه أنقذني لكان خيراً من الحياة التي عشتها من ذلك التاريخ

وكافأني مجلس الإدارة بساعة من الذهب وشهادة اعتراف ببطولتي ولكن ما كان أقسى الثمن الذي دفعته . فبدلاً من الفتاة جوديت هاتون الجميلة بكل ما في كلمة جمال من معنى حلت فتاة ليس لها منها إلا اسمها ، مشوهة الوجه والساعدين واليدين أقبح تشويه من أثر الحريق

وخافوا ألا ينمو شعري الذي احترق ؛ وفعلاً لم ينم في مقدمة الرأس فألبست طاقية من الشعر الصناعي ، فلما نظرت في المرآة كدت أصرخ لما رأيت من تناقض بعد ذلك الشعر المصفف تصفيفاً جميلاً وبين خلقتي المشوهة

واستأنفت عملي في التدرب على التمريض ولكن ظهر بعد أسبوعين أن استمراري فيه غير ميسور فقد كان المرضى يتأففون كلما رأوني ، حتى الأطفال كانوا إذا اقتربت منهم صاحوا به « إبتعدي ! إبتعدي ! » ولم يكن ذلك قسوة ولكنهم لم يكونوا يستطيعون مقاومة الرعب المصحوب بالشفقة حين ينظرون إلى وجهي ، كذلك لم يكونوا يحبسون دموعهم التي تطفر عند رؤيتي

ولم تكن إدارة المستشفى لتبالي بما في عملها من قسوة إذا كان الأمر مما يتصل بمصلحة المرضى ، لذلك لم تدهشني كلمات مس اسمث الرئيسة الرقيقة ، ولا تلطف الدكتور بيرنس عند ما قال : « أخشى ألا تساعدك قوتك على العمل الآن . وهذا مما يؤلمني، ولكن فلنفكر فيما يمكن أن نساعدك به »

ثم دخل الحجرة الدكتور مكفاي بقوامه الطويل الرشيق وعينيه السوداوين الساحرتين ، فما رأيته حتى وثب قلبي في صدري ، فلقد كان الدكتور مكفاي شفيقاً جد شفيق في معاملتي في أيام نقاهتي ، وفي الأسبوعين الماثلين الأخيرين ... ولكنه كان شفيقاً على كل إنسان وبذلك جرت سمعته في كل مكان !

وما كان أجمل صوته القوي وهو يخترق الجو إذ يقول :

— ما هذا الجحود الذي أرى ! ألم تكد مس هاتون تجود بروحها في سبيل إنقاذ المرضى ؟ وكل جرح في وجهها شهادة ناطقة ببطولتها التي لاعهد لهذا المستشفى بمثلها من قبل ! والآن تجرؤن على أن تقذفوا بها إلى الطريق بلا عمل ولا مأوى ولا شيء غير ساعة من الذهب تسخر من تحيتها الهائلة ! ...

فأجاب الدكتور بيرنس بقوله :

ليس هناك ما يدعو للغضب يا دكتور فلقد اعترفنا ببطولة مس هاتون وقدرناها وقد عنينا بأمرها كل العناية . والآن نحاول أن نوفر عليها ما تشعر به من ضيق وتألم

فكبحت جماح دموعى وقلت :

— إنه على حق فيما يقول يا دكتور مكفاى ، فقد كان يجب أن أترك المستشفى على أية صورة من الصور، فإن المرضى يتأذون حين يرونني . وأشرت إلى ما فى وجهى وساعدى من أثر الحريق . فقال الدكتور مكفاى فى لهجة هى الشفقة المجسمة ، وقد وضع كفيه على كتفى المرتجفتين :

— يالك من فتاة مسكينة !

ثم نظر إلى الدكتور بيرنس وقال :

— أرى أننى لا أزال جديداً هنا ومن الجائز ألا يكون لى حق التدخل فى شؤونكم؛ لذلك يسرنى أن أعرض على مس هاتون وظيفة سكرتيرة لى

وهكذا بدأت أعمل سكرتيرة للدكتور مكفاى فى غرفة صغيرة بعيادته أكتب على الآلة الكاتبة ، وأرتب مسودات كتاب كان يضعه فى مرض الأطفال

وأمضيت فى عملى أزداد كل يوم له حباً . وكانت أسعد لحظات حياتى هى التى يدخل فيها إلى غرفتى ليملى شيئاً جديداً أو يراجع ما كتبت معتذرا كلما احتد غاضباً إذا وقف على شىء من الخطأ فى عملى . وكنت كل يوم أدعو الله ألا أخطىء حتى لا أغضبه

ولقد أدركت الآن أن بعض الغلطات التى كان يلومنى عليها كانت من عمله هو إذ كان يغير آراءه فى بعض فقرات الكتاب

ومضت أسابيع وحياتى هى عملى ، فلم أكن أشعر بالحياة إلا إذا دخلت غرفتى الصغيرة وانكببت أعمل للرجل الذى أحببته . وكنت أحضر مبكرة وأنصرف متأخرة . وقد استأجرت غرفة لسكنى كنت أطهى فيها طعامى ، متجنبة لقاء الناس إذ كنت لا أحب أن يرى وجهى المشوه أحد حتى الغرباء الذين أمر بهم فى الطريق ، فكنت أقضى حاجاتى بالتليفون حتى ملابسى . وكنت إذا خرجت إلى طريق وضعت على وجهى حجاباً كثيفاً

ولم أكد أجتمع بأصحابى بل تجنبتهم إلى أن انقطعت كل صلة بينى وبينهم فلم يعد أحد يزورنى حتى ولا يسأل عنى بالتليفون ، فأصبحت بذلك فى وحدة موجعة ، ولكننى تعزيت عنها بالعمل للرجل الذى أحببته . وكنت إذا انتهيت من عملى وعدت إلى غرفتى حلمت بالحياة التى كان من الممكن أن أحياها معه لو لم أصب بذلك التشوه

واعتقدت أنه حتى أحلامى فى أخشن صورها لن تزيد على أن تبقى أبداً أحلاماً لا أكثر

وفى إحدى الليالى سألنى فى لطف إذا كنت أستطيع السهر فى العمل معه لأن لديه فصلين من الكتاب يريد إنجازهما دون أن يقطع عليه أحد عمله فكان طبيعياً أن أرحب بطلبه سعيدة به

وجدت الدكتور مكفاى فى انتظارى ، فلما حضرت حمل الآلة الكاتبة إلى الغرفة الكبيرة توفيراً لراحة العمل وألح على أن أشرب كأساً من الخمر معتذراً بأنه قد أضاع على ليلتى . ففهمت أن ما حدث هو الخير

وجلست على المكتب أمامه وقد جلس على الصفة جلسة مريحة وقال :

— أرجو أن تعذرى لى كسلى فإننى متعب تعباً شديداً »

وقضى ساعة وهو يملى على بعض تصحيحات مشيراً إلى موضعها فى النسخة التى كان يقرأ منها

وخفت صوته على حين فجأة ثم سكت . فرفعت نظرى عن الورق ونظرت إليه فرأيته مستغرقاً فى النوم . فأطفأت بعض الأنوار فى هدوء ثم مشيت على أطراف أصابعى إلى حيث علق معطفى فتناولته وغطيته به . وكان هذا المعطف فى نظرى عند مالبسته فى تلك الليلة قديماً زرياً أما الآن فقد أصبح شيئاً مقدساً عندى

ثم أدنيت كرسياً قريباً منه لأستطيع أن أمتع عينى بالتأمل فى وجهه الجميل ، ولأتأمل فى مجموعة أعضائه المتناسبة التى تؤلف شخصاً غير عادى الوجود

وشعرت بشوق إلى أن أضع رأسى على صدره وأمحو بقبلتى ما على وجهه المحبوب من تجاعيد التعب . ولكننى لم أفعل فلم أكن لأقلق راحته تحت أى مؤثر من المؤثرات

مرت الدقائق متتابعة وتجاوزت الساعة منتصف الليل ، فخرج من بين شفتيه تنهد طويل ، وتقلب تقلب غير المرتاح ، وأفلتت ساعده تدريجاً حتى سقطت رأسياً إلى جانب الصفة . ودون أن أشعر بما أنا فاعلة ركعت على ركبتى ورفعت تلك اليد الشفيفة التى توامى آلام المصابين فطبعت عليها قبلة من شفتى الملتهبتين وقد انهمر الدموع على خدى المشوهين من آثار الحروق

وعلى حين فجأة سمعت صوته العذب يقول :

« لم هذا يابنيتى السكينة ... أتحبيننى يا جوديت إلى هذا الحد ؟ »

وطوقتنى ساعداه وضمتانى إليه رويداً رويداً حتى شعرت بدقات قلبه السريعة على صدرى ، فجرى الدم حاراً فى كل جسمى حتى اضطربت من شدة الفرحة بقربه ، وبلغ من شعورى بالسعادة أن تمنيت الموت بين يديه . واندفع هو يقبل شفتى فى حرارة وشوق ورغبة . فلم يمر للتمنع أثر فى خاطرى . ولم أفكر فيما هو صواب وما هو خطأ ، فلقد كان هو كل سعادتى وحياتى ، وكل ما يتصل بكيانى ووجودى ملك له

وبعد بضعة أسابيع من هذه الليلة السعيدة قال لى :

— أريد ياجوديت أن تحضرى فتسكنى فى بيتى

فسألته :

— أتقصد بذلك أننا سيتزوج أحدنا من الآخر؟

فأجاب :

— إنك تعرفين يابنيتى العزيزة أننى لا أستطيع الآن أن أتزوج منك . فهل تشعرين بالسعادة من حبك لى ؟ ولا أظنك تريدين تحطيم مستقبلى ... ؟ وما أحسبك إلا فاهمة ما أقول ؟ !

وعلى الرغم من أننى لم أفهم دمدمت بكلمة « نعم » فى لهجة متقطعة . . . ولم ألبث أن انتقلت إلى بيته حيث قدمنى لمديرة البيت ولسائق سيارته باسم « مس هاتون سكرتيرتى الخاصة »

وإذ تبينت لأول مرة حقيقة الخطوة التى خطوتها شعرت برجفة من الخوف تسرى داخل كيانى ، ولكننى لم أفكر قط فى النكوص ، فلقد كنت أحب روجر حباً لا أستطيع معه أن أفلت فرصة وجودى دائماً على مقربة منه

وإنى لواثقة أنه لا جين بروان مديرة البيت ، ولا هارى باركر السائق قد ساورهما أى شك فى وجود علاقة بين الدكتور الذائع الصيت مكفاى

وسكرتيرته السمينة المشوهة التي تضطر لتفادي نظر الناس إليها أن تأكل دائماً في غرفتها . وكانا يعلمان أنني أشتغل طوال النهار بالكتابة على الآلة الكاتبة ، ثم أشتغل في جميع ما يحتاج إليه من البيانات من مكتبته الكبيرة ، وأتلقى ما يمليه عليّ من العمل المتواصل إلى أن يأذن لي بالانصراف إلى غرفتي

وما كانا ليحلما بحقيقة أمري إذا ما أقفلت عليّ باب غرفتي المحبوبة ، متمنية أن تكون هذه الليلة من الليالي التي أستيقظ فيها فأجد حبيبي إلى جانبي يضمني في حرارة وشوق ... أما في غير هذه الليالي السعيدة فكان عزائي أن أحلم بالوقت الذي أصبح فيه زوجة لروجر

ولم أشك قط في حب روجر لي لأنه لو لم يحبني لما كرر لي قوله : « إن حبك هو أعذب شيء في حياتي . فهو يتوج أيامي المشحونة بالعمل ـ يا طفلتي العزيزة ـ أشبه ما يكون بيلسم مريح لذيذ

وكان قد مر على إقامتي في بيت روجر الجميل ثلاثة أشهر عند ما رأيت إحدى نوبات غضبه الحمقاء، فقد ثار في وجه السائق هاري فدفعه أمامه وهو يهدده بقبضة يده

وكان ذنب هاري أنه أخطأ فهم تعليماته فتسبب عن ذلك تأخره عن مأدبة عشاء أقامتها إحدى الجماعات الخيرية تكريماً له ، واعترافاً بخدماته الإنسانية . ولم يرض في غضبه أن يستمع لأعذار هاري وفصله من خدمته في الحال

تألم قلبي شفقة على هاري ، فقد كانت امرأته لا تزال في دور النقاهة بعد عملية جراحية وكان يدفع أجراً لامرأة تخدمها وتخدم أبناءه الأربعة في أثناء مرضها . ولقد عجبت من أمر طبيبي المحبوب الذي تحمله الشفقة على أن يجري لمسز بارکر عملية جراحية كبيرة لا يتناول عليها أجراً ، ثم يفصل زوجها من خدمته قبل أن يتم شفاؤها بل حتى قبل أن تغادر فراشها ... ولقد ذهبت جميع توسلات هاري هباء فلم يقبل الدكتور مكفاي أن يصغي إليه أو يعيده إلى خدمته أو حتى يعطيه توصية ما

على أنه لم يخطر لي حتى ولو في المنام أن روجر يستطيع أن يقسو علي أو يمكن أن يفكر في مثل هذه القسوة . فقد بررت سلوكه مع هاري بقلقه على الذين أقاموا الحفلة وما سببه لضيوفهم من مضايقة . وعلى غير علم منه أعطيت هاري عشرة جنيهات فقد كان طبيبي كريماً في المال وكان ينقدني راتبي في مواعيده بسخاء

وكان أحياناً يؤنبني في ألفاظ عنيفة ، وينظر إلي نظرات جاحظة كمن أصابه مس في حين يكاد لا يكون هناك شيء مطلقاً يدعو إلى الغضب . وكنت ألتمس له العذر في نفسي باحتمال أن يكون قد حدث في المستشفى أمر لم يعجبه ، أو أن تكون حالة أحد مرضاه الذين يحبهم ويكرس وقته للعطف عليهم والعناية بهم قد ساءت . فكنت أحاول أن أخفف متاعبه فأوليه عناية سخية بكل أسباب الترفيه

ولكن كثيراً ما جاءت أوقات لم تكن فيها معاملته لي وأقواله التي تنم عن الاكتئاب لتتفق مع ما أبدي له من عواطف الحب الشديد ، فكان منظري وجرس صوتي وحتى مجرد لمسي يثير في نفسه عاصفة من الغضب المزعج ، وكانت تبدو وحشيته في طلباته وكان يبتهج ابتهاجاً شيطانياً بإيذائي وتعييري بأنني كحجر الطاحون المعلق في عنقه قاتلاً

أنه لا يستطيع أن يتخلص منى لأنه لا يوجد إنسان سواه يقبلنى فإنى أشبه بالطائر المخيف المنظر

وكان فى أغلب الأوقات يفاخر بأن هناك كثيرات من الفتيات الجميلات اللواتى يحببنه وأنه يستطيع أن يتزوج من أية واحدة منهن . فكان بمثل هذه الأقوال القاسية يسحق روحى بأعنف مما تسحقها الجروح التى فى وجهى وفى ساعدى ويدى

وكانت تعقب ذلك ساعات لا نهائية وليال من الأرق واليأس الموجع ، فكنت أتمنى الموت الذى كنت أجبن جداً من أن أجلبه بيدى

ولكن كان طبيبى الشفيق المحب يعود إلىّ دائماً فيقضى معى ساعات هنية أشعر أننى قد سعدت فيها إلى جنة السعادة . فكانت ذكريات هذه الساعات تمحو ذكريات أو بقات العذاب . وكم أتمنى لو أسعدتنى الكلمات فاستطعت أن أوضح لك يا قارئى العزيز مدى التفاوت بين الشخصيتين ، لعلك ترى أننى لم أكن مجنونة إذ أحببت ذلك الحب البالغ وسلمت فى كل ما بقى لى فى الحياة : فى نفسى وفى كرامتى الشخصية

ثم لم يكن بد من أن أقول لروجر : « يجب أن نعقد زواجنا الآن ، يا عزيزى ، فإننى سأصبح أم طفل صغير »

ولكنه نظر إلى نظرة المجنون وقال :

— لا ! إنك لن تقدرى !

وابيض وجهه وتقلصت عضلاته ، وأقبل نحوى يهز يده المنقبضة هزات تهديدية عنيفة

يا لله ! لقد لبسته شخصيته الأخرى ! فلماذا خبرته ؟ لم لم أهرب من بيته فأختفى بعيداً عنه ؟ لقد اقترب منى رويداً رويداً

وكدت أشعر بحرارة أنفاسه تلفح وجهى عندما لكمنى بقبضته لكمة قاسية ... فشعرت أننى أهوى هوياً مستمراً لا نهاية له

فلما عاد إلى صوابى وجدتنى راقدة فوق الصفة وعلى رأسى قطعة من القماش مبللة بالماء البارد ، ورأيت روجر يذرع أرض الغرفة بعض يديه ويهمهم باللعنات

فلما رآنى أفقت وقف ثم تناول كرسياً وجلس إلى جانبى ، وكانت نبرات الغضب قد اختفت من صوته إذ أخذ يحدثنى بلهجة رجل الأعمال ، كما لو كان يتحدث إلى أحد مرضاه فقال :

« يجب أن نخرج أمر الزواج من حسابنا — وهذا ما يجب أن تعرفيه — ولكنى سأرسلك إلى مكان بعيد عن هنا حيث يعنى بأمرك عناية تامة و ... »

وانطبقت شفتاه انطباقاً عصبياً ثم قال فى لهجة أمر غاضبة :

« إذهبى إلى فراشك » .

آه ما أقسى آلام تلك الليلة التى قضيتها ساهرة أفكر فيما كان وفيما سيكون ، وأنا لا أدرى إلى أين يريد أن يرسلنى روجر ولا ماذا يقصد أن يفعل بى ثم ندمت على كل ما حدث !

ولو كان لى أحد من الأصدقاء أو الأقارب أو حتى لو لم تكن تشوه وجهى هذه الحروق التى كانت تنفر الناس منى لأمكننى أن أبتعد إلى مكان ناء حيث أبدأ حياة جديدة مقطوعة الصلة بالحياة الماضية

ولو أمكن أن أموت !

ولكن لم يكن فى استطاعتى أن أموت . فإن الروح الذى أحمله تحت قلبى يأبى على الموت . . .

إذ يجب أن أعيش من أجله . ولقد كنت شاعرة أنه سيكون ولداً ذكراً ... وسيكون نسخة طبق الأصل من أبيه ، الرجل الذى قدسته وعبدته ، لا تلك الشخصية الأخرى الحقيرة التى لم تكن تعنى إلا بامتلاك جسمى المحبوب . ولقد أحسست فى أعماق قلبى أن روجر سيحبنى مرة أخرى من أجل ابنه .

نعم على الرغم من كل الآلام والأحزان التى سببها لى والقسوة التى عاملنى بها ، إذ رفض أن يتزوج منى وأن يعطى اسمه لطفلنا الذى لم يولد ، على الرغم من ذلك مازلت أرجو عطف روجر ومازلت أحبه حباً تسرب إلى كل مكان فى نفسى ، فكانت نظرة شفيقة منه أو كلمة أو حركة كافية لأن أغفر له كل ما أساء به إلى

ولكن جاء الصباح ولم أسمع هذه الكلمة الشفيقة ، وكل ما سمعته أمر قصير صاح به من الردهة أن أحزم ملابسى ، عندما دخلت جين تحمل لى طعام الأفطار . وبدا التجهم فى وجهها المستدير الحنون وهى تسألنى :

— هل غضب للا شىء كما فعل مع المسكين هارى ؟

ولم أرد أن تعرف المرأة الحقيقة الفاضحة فاكتفيت بأن هززت رأسى ، وكدت أغص عندما أبصرت ما تجلى على وجهها من أمارات الشفقة والعطف . وكم تمنيت لو ألقيت بنفسى بين ساعديها وأسندت رأسى على صدرها وبحت لها بقصتى المؤلمة ، ولكننى بقيت مبتعدة عنها شاعرة بأن لا حق لى فى التمتع بحنانها

وهكذا أعددت ملابسى ؛ وعند هبوط مساء اليوم التالى كنت قد استقررت فى شقة مفروشة فى بلدة بعيدة تحت اسم مسز جوديت اسميث

وكانت الشقة مؤلفة من غرفتين : غرفة للنوم وأخرى للجلوس وفيها حاجز يحجب جهاز الغاز الذى كنت أعد عليه طعامى . وكانت نافذة الغرفة تشرف على مراع بعيدة وأشجار عالية وميدان اللعب فى إحدى المدارس . وكانت تسليتى الوحيدة أن أنظر إلى الأطفال يلعبون وأسمى كلا منهم بالاسم الذى يروقنى . والحق أن هؤلاء الأطفال هم الذين قد أنقذونى من جنون الوحدة

ومضى الشهر الأول والثانى قبل أن يحضر روجر لزيارتى

فلما حضر وجدته هو الطبيب المحبوب الذى أعبده ، وكان عذب الحديث مبتهجاً جم الشفقة شديد العناية بمصلحتى

وأعددت ما يلزم للوضع فى مصحة صغيرة على مقربة من البيت ، وكان يعرف طبيبها ومديرتها ، وقد أوصانى بالرياضة وقراءة الكتب المفيدة ومواصلة الانشراح وتناول الطعام الجيد . وعند ما هم بالانصراف وضع كمية من النقود فى حافظة نقودى وقال : « قد تحتاجين لإعداد ملابس حسنة للطفل فاشترى ماشئت ؛ وإذا احتجت للمزيد فابعثى إلىّ » ثم ضمنى إلى صدره وقبلنى فى حنان قبلة الوداع وقد سمانى « الأم الصغيرة »

تحسنت حالتى النفسية على أثر هذه الزيارة فعملت بوصايا روجر التى كتبها لى فى ورقة احتفظت بها فداومت الرياضة وكلفت صاحبة البيت بابتياع ما يلزم من الأقمشة وشغلت نفسى بإعداد ملابس الطفل فكنت أخيط وأطرز وأنا جالسة إلى جوار النافذة أشرف على الأطفال اللاعبين ، وقد حيى الرجاء فى نفسى وأحسست أن روجر سيحب ابنه حباً شديداً

ولم أر روجر من ذلك اليوم إلا بعد أن مضى أسبوع على الوضع . وكان الطفل جميلاً قوى البنية ، وكان صورة مصغرة من أبيه يحمل تقاسيمه ومميزاته. وطفح قلبي المتعطش بحب طفلي الذي ملأ الجو حولي سعادة ، وماذا يهمني الآن إذا كان روجر لا يتزوجني وقد حظيت بهذا الولد المحبوب الذي سميته روبرت ؟ أليس في وجوده ما يسد فراغ حياتي الموحشة !

ثم جاء روجر ولعله قد وصل في المساء فقد وجدته في الصباح جالساً إلى جانب سريري جامد الوجه تبدو في ملامحه أثر الحزن

وسرى خوف خفي إلى قلبي فسألته في لهفة :

« ماذا هناك ؟ ما الخبر ؟ »

فقال هامساً :

— صه يا بنيتي العزيزة

ثم أشار إلى الممرضة أن تخرج من الغرفة

فلما انفردنا قال لي في صوت منخفض : « يجب أن تتشجعي يا جوديت فقد مات طفلك في الليلة الماضية ، إذ كان قلبه ضعيفاً ، وهذا ما يحدث غالباً إذا كان حجم الطفل أكبر من المعتاد كما كان طفلك »

ومرت لحظات طويلة من السكون الرهيب المؤلم ، لحظات لم أستطع بل لم أقبل أن أصدق ما سمعت . ثم اندفعت في زفرات قوية لم أستطع حبسها وارتفع صوتي بالبكاء ، ولكني حزن قاتل . فقد كان الأمر فظيعاً إلى أقصى حدود الفظاعة . إن الحياة لا يمكن أن تقسو عليّ إلى هذا الحد : لقد فقدت أسرتي وجمالي وابني وكل شيء . وما كنت لأستطيع أن أصدق أن الله يأخذ ابني مني ! إن الله لا يقسو على الناس مثل هذه القسوة . وكان روجر في أثناء هذه الحال يحاول أن يعزيني بقوله إن ما حدث كان هو الخير

ولكنني لم أتعز ، فقد كنت أريد أن يعود لي ولدي ، وطلبت أن أراه وإن كان ميتاً . نعم يجب أن أراه وأقبل شفتيه الصغيرتين وأتأمله الدقيقة مرة أخرى ، ولكن روجر لم يقبل أن يجيب طلبي وضغط زر الجرس فجاءت الممرضة فأمرها أن تعطيني حقنة مسكنة ...

وبعد يومين عدت إلى بيتي وقد أصبحت حركة أطفال المدرسة وصيحاتهم مهزلة في نظري فلم أعد أهتم حتى بالنظر من النافذة ، بل لقد كان صراخهم يصدع قلبي ، فكنت أسد أذني بأصابعي حتى لا أسمع ؛ ولكن على الرغم من ذلك وصل إلى أذني صوت غلام ينادي صاحبه باسم روبرت ، فذكرت ابني الجميل الصغير الذي لم أكد أسعد بوجوده حتى خطفه الموت مني فرقد وحيداً في قبر صغير لا أعرف أين مكانه

وتولاني جمود مخيف فلم أكن آكل إلا نادراً وقد سدت شهيتي دون كل شيء ، وكنت أقضي ليالي قلقة موجعة ولم يكتب روجر إليّ بكلمة واحدة ولم يزرني

وكنت قد قطعت الأمل في عودته حين تلقيت منه تلغرافاً يقول فيه : « أعدي حقائبك في الحال فإني قادم لآخذك » ، وفعلاً جاءني الطبيب الشفيق الذي أعبده

ولم يأخذني هذه المرة إلى بيته لأعيش تلك الحياة المفزعة بين الحب والخوف بين شخصيتين متناقضتين في إنسان واحد ، ولكنه أخذني إلى مسكن صغير مؤلف من ثلاث غرف مؤثثة بأجمل الأثاث فكانت في الحق أجمل من أن تسكنها امرأة مشوهة مثلي ...

ولما وصلنا إلى البيت قال لى فى رقة وعطف :

— هذا هو بيتنا يا ابنتى العزيزة . وهنا المكان الذى آوى إليه طلباً للراحة من متاعب الأيام المرهقة بالعمل . هنا أستطيع أن أنعم بالساعات السماوية التى لا أستطيع أن أجدها إلا بين ساعديك

ثم تألمت وامتعضت امتعاضاً موجعاً لأنه لم يستطع أن يبقى معى ولم يضمنى بين ساعديه

وما كان أشد بلاهتى إذ لم أدرك إذ ذاك أنه لم يكن يحب غير جسمى ، وغير العاطفة المادية التى كنت أفرغ فيها نفسى بغير حذر . فهذا وحده هو الذى كان يغطى فى نظره على منظر وجهى المشوه المخيف . وعلى الرغم من أننى شككت فى إخلاصه لى فقد ظننت أن علاقة الأبوة التى ربطت بينى وبينه ، وأن الحزن المشترك على ولدنا المفقود قد قربت ما بينى وبينه ، وأنه متى زالت الموانع المتصلة بعمله فسيتزوج منى

ومع ذلك فقد كان أميناً صادقاً فى ناحية من النواحى فإنه لم يكذب على قط . فقد كان يعلم مقدار حبى له ، وأنه كان كل شىء لى فى الحياة التى خلت من الأهل والأصدقاء ، فكان يتركنى أتخيل ما أشاء دون أن يقول شيئاً ، فكنت أؤمل أن سيأتى اليوم الذى يصحح فيه علاقتنا أمام الله وأمام الناس

نعم لقد ظننت ذلك فكان شأنى شأن الكثيرات من الفتيات اللواتى ضللن من قبل كما ضللت فأحببن فى غير حذر ... فالحق أننى كنت أنتظر أن يتزوج روجر منى يوماً من الأيام ... نعم كنت أنتظر ذلك اليوم على الرغم من تذكرى تلك الليلة التى أخبرته فيها بأننى حامل فثار ثورته الفظيعة وخبرنى فى صراحة أن الزواج مسألة بعيدة عن حسابه . وبقيت أنتظر أن أرى الرجل الذى حملنى على حبه يأتى إلى يوماً وفى يده خاتم الزواج ، وعلى الرغم من أننى لم أر ما يشجع هذا الأمل فى نفسى استأنفت علاقتى الماضية معه وأعطيته من حبى ومن نفسى كل ما طلب فى غير تمنع أو حذر

وحملت مرة أخرى ولكننى لم أحزن لذلك ، فقد كنت أشعر بفراغ قاتل فى حياتى منذ أخبرنى روجر أن ابنى قد مات فكنت شديدة الشوق إلى ولادة طفل سواه

فما شعرت بالحمل حتى تولتنى فرحة منعشة ، وبدأت أحلم بالمستقبل وأصوره فى أبدع الصور وأبهجها ، وانتظرت أن تسنح لى الفرصة المناسبة لإخبار والد جنينى بحالتى راجية أن يقابل حبيبى فرحتى بمثلها

ولكن مرت الأيام متعاقبة طويلة ولم يعد روجر . ولم أكن أسمح لنفسى بالتفكير فى الأسباب التى جعلت زياراته نادرة والفترات بينها متباعدة ولكننى عشت فى حلم براق ، ثم ...

قرأت فى إحدى الصحف المحلية أن الدكتور روجر مكفاى لشدة حبه الأطفال قد تبنى طفلاً يتيما فى العام الأول من عمره ، ونشرت الجريدة صورة الطبيب يحمل الطفل المتبنى

ونظرة واحدة ، نظرة مرعبة كفتنى لأن أعلم أن هاتين العينين السوداوين الصغيرتين اللتين تنظران إلى من الصورة هما عينا طفلى المحبوب روبرت ... نعم إنه ابنى ، ابنى ...

وأحسست ألماً قارساً ينساب فى أعصابى ، وخيل إلى أن ضربات قلبى قد وقفت وأنه يتحول رويداً إلى قطعة من الثلج داخل صدرى . وبدأت أتبين خطر الموقف كما بدأت أفهم تدريجيا كيف

لم يستطع الدكتور مكفاى المعروف بحبه الأطفال المرضى أن يقاوم حبه ابنه من لحمه ودمه وأنه أراد أن يضمه إلى صدره ويعطيه اسمه ولكن من طريق تزيد سمعته وعطفه على الأطفال مكانة عند الناس فهو بهذا التبنى يعلن عن نفسه من طريق لا تجلب له الفضيحة والعار . . .

ولكن أنا ؟ إننى أنا الأخرى أحب ابنى . لقد تألمت من أجله طويلاً ! لقد تمتعت أسبوعاً واحداً بضمه إلى صدرى وتقبيله ثم أخبرونى أنه قد مات . وفى خلال هذه الأشهر الطوال التى حزنت عليه فيها وبكيته كان هو على قيد الحياة . فأين كان ؟ وأين هو الآن ؟ ... أين روبرت ابنى ؟ لا بد من أن أراه . . . ولا بد من أن أضمه إلى صدرى مرة أخرى

ولكن كيف أصل إلى ابنى ؟ شرعت أذرع أرض الغرفة مفكرة . . . وقد بدأت أفهم لماذا لم يجىء روجر منذ عهد طويل ، ولماذا أرسل إلى النقود مع رسول بدل أن يحضرها بنفسه ، فهو من غير شك كان يشعر أن هذا الحادث لن يمر دون أن أرتاب فى أن الطفل الذى تبناه هو ابنى أنا ...

ولكن لابد من الحصول على ابنى ... لقد أعدت قراءة ما كتبته الجريدة التى وصفت الاستعدادات البديعة التى أعدها الطبيب لابنه بالتبنى ، وذكرت المربية الفنية التى أحضرها له ... وقضيت ساعات طويلة فى التفكير وتدبير الخطة التى أصل بها إلى رؤية طفلى المحبوب

قضيت فترة طويلة فى التنزه المقابل لبيت الدكتور مكفاى الجميل وكنت أعرف كل ركن وكل زاوية فى ذلك التنزه الذى تروضت فيه تحت ستار الظلام . ترقبت لأدرس كل حركة متصلة بذلك البيت الذى يضم ابنى المحبوب

ولكن يجب أن أحذر من أن يرانى روجر . فما من شك فى أنه سيعرف فى الحال هذه المرأة المقنعة ، والله وحده الذى يعلم ماذا يحدث لو تقمصت فيه إذ ذاك شخصيته الشريرة ... واضطربت لمجرد ذكرى إنفعالاته العنيفة المتكررة ... ثم ذكرت الوسيلة التى لجأ إليها روجر فى تبنى ابنه الحقيقى ليزيد فى الإعلان عن حبه للأطفال وعنايته بهم

ألا أدمر هذه السمعة الزيفة ! ألا أكشف أمر ذلك الرجل ذى الشخصية الشريرة فأعلم الناس جميعاً أن فى نفس هذا الطبيب الرقيق نفسية شيطانية مجرمة مجردة من الإنسانية ؟ !

وفى يوم من أيام المراقبة رأيت المربية تهبط درجات البيت تنقل عربة المهد الصغيرة من درجة إلى درجة فى حذر شديد ، فلما صارت فى الشارع تقدمت منها فوقفت فى طريقها أواجه ابنى الصغير الجميل ، ولم تكن لتستطيع اجتيازى دون أن تبدى شيئاً من الخشونة فوقفت مكانها مغيظة فى تعاظم

فقلت : « ما أجمل هذا الطفل أتسمحين لى أن أحمله لحظة ؟ »

ولكن الطفل ابتسم وتحرك فى عربته الجميلة فاصطدم بجانبها

وتولانى شىء من الضعف فأمسكت بحافة العربة وانحنيت عليها أمتع عينى بالنظر إلى وجه ابنى الجميل . وما كدت أتأمل فى تقاطيعه حتى زال كل شك فى أنه هو ولدى روبرت فمددت يدى المتلهفتين على حمله

وهنا تدخلت المربية وقالت :

— لا، لا تمسيه فإن الدكتور مكفاى لا يسمح بذلك ...

فصحت :

« ولكنه ابنى ... نعم هو ابنى ... ابنى ! »

ولم ألبث أن اختطفته وجريت به بين الأشجار فسمعت صياح المربية ورأى تنادى رجال البوليس ولكننى أمعنت فى الجرى هاربة بابنى المحبوب بين ساعدى

ولكن ذلك لم يغدنى طويلاً فلم ألبث أن سمعت صفارات البوليس ورأى فاختفيت بين مجموعة من الأشجار الكثيفة ولكن صيحات الطفل الخائف كشفت عن مكانى فأقبل على رجال البوليس فانتزعوه من صدرى وأعادوه إلى مربيته ثم اقتادونى إلى مركز البوليس ...

وفى أثناء المحاكمة تعرفت المربية على. وأما الدكتور مكفاى فقد سلك سلوك الرجل الغريب الذى لا يعرفنى فقال :

— لا شك فى أن المرأة مصابة بشىء من الخبل وقد دفعها شىء من الهوس إلى ما فعلته ، وإنى أوصى ...

وهنا انحنى على القاضى وتبادلا الهمسات بضع لحظات ...

لم يكن هذا الرجل هو الطبيب المعروف بإحسانه وشفقته ولكنه الوحش الذى يبتهج بأيذائى فى قسوة متناهية ، ولقد أردت أن أظهر لهم هذه الحقيقة وأقيم عليها الدليل

ولكن لم أكد ألفظ بالكلمة الأولى حتى وضعت رئيسة السجانات يدها الغليظة على فمى لتسكتنى ؛ وساعدها أحد رجال البوليس الواقف على مقربة منا فى إعادتى إلى سجنى وأنا أصيح إنه ابنى

ولم يصغ أحد إلى صيحاتى فلم تتح لى فرصة رواية قصتى لأن رأى الدكتور مكفاى كان نهائياً ؛ وكان خير مكان لى مصحة من مصحات المتوهات حيث يعنى بى العناية الكافية وإلى هناك أخذونى

ولقد أدركت أن المكان الذى نقلت إليه لا يمكن أن يكون مستشفى المجاذيب الرسمى فى المقاطعة ، لأن الغرف كانت مؤثثة بأثاث جميل ، وكانت الأرض نظيفة معنياً بها ، وقد خصصت لى غرفة وقامت على خدمتى إحدى الممرضات . وهذه فيما أظن حسنة جديدة من حسنات الدكتور مكفاى

وما أجمل أن يقول الناس : « أتعلمون خبر تلك المرأة التى حاولت خطف ابن الدكتور مكفاى بالتبنى ! لقد عنى بها الطبيب الكريم فوضعها فى مصحة خاصة وأمر بالعناية بها ودفع عنها ما تحتاج إليه من نفقات ... أليس ذلك أمراً يدعو إلى الإعجاب ... ! »

وكلما حاولت أن أنتهز فرصة لرواية قصتى لمن تجمعنى به المصادفة أوصدوا على الأبواب . وأخيراً أدركت عقم محاولتى ، ثم أحسست الحياة الجديدة تتحرك فى باطنى ، فقررت أنهم متى أخرجونى من هذه المصحة إلى حيث أضع الطفل الجديد فسأكون شديدة الحذر والحيطة حتى لا يأخذوه كما أخذوا أخاه من قبل

ولكننى لم أخرج من هذه المصحة وكلما حاولت الخروج أعادونى بالقوة باكية صاخبة ... وعندئذ أدركت أننى لن أبرحها ما حييت فتولانى اليأس القاتل

ولما حاولت أن أهرب فحصنى الأطباء وظهرت حالة الحمل وهنا تدخل الدكتور مكفاى مرة أخرى

وطلب أن يتولى العناية بأمرى . وقال :

— يا لها من امرأة مسكينة ، فما من شك فى أن حالة الحمل هى التى تحدث لها هذه الاضطرابات العصبية . وليس ذلك جنوناً فعلياً ولكنه خليط من الأعراض العصبية والضعف العقلى . فهى إذ تصيح أن الطفل ابنها إنما تصدر فى ذلك عن تصورات وهمية يحدثها تطلع عقلها إلى ما سوف يكون فى المستقبل حين تصبح أمًّا . ولكن هذه الحالة ستزول متى وضعت طفلها

وعلى الرغم من أننى نظرت إليه مباشرة فإنه لم يطرف طرفة واحدة تنم عن معرفته لى ، ولكن عينى ذلك الشيطان السوداوين كانتا تبعثان بنظراتهما التهديدية التى تبعث الرعب إلى أعماق نفسى

ولازمنى هذا الجزع إلى أن انتهت أشهر الحمل ونقلت إلى مصحة الولادة التى لم أعرف مكانها لأنهم نقلونى مخفورة بتحفظ شديد إلى هذه المصحة النائية التى لم أكد أرى فيها غير وجه الممرضة الكهلة وكان وجهاً متجهماً . ولم أر قط المولود الذى وضعته ولم أعرف إن كان ذكراً أو أنثى

ولما استطعت أن أترك فراشى أرسلت إلى الشاطئ الغربى لأسكتلاندة طلباً للنقاهة ، وهذا ولا شك عمل آخر من أعمال الدكتور مكفاى الخيرية ، ولكنه كان عملاً خفياً لم يعلن عنه . ورافقتنى فى الرحلة امرأة صامتة عبوس راقبتنى مراقبة دقيقة فلم تكن تسمح لى بالنظر إلى ما يحيط بالطريق من معالم الطبيعة إلى أن أسكنتنى فى شبه فندق صغير فدفعت لصاحبته مقدماً أجر شهر لإقامتى وأعطتنى خمسة جنيهات ثم مضت عائدة إلى لندن فيما أظن

وها أنا قد أصبحت بعيدة عن بلدى بضع مئات من الأميال وحيدة لا قريب ولا صديق . وهكذا انتهت ذكريات الأشهر الأخيرة من اتهام بالجنون إلى سجن فى مصحة المتوهين إلى ولادة ثم إلى المنفى الأخير ، وبذلك انتهت حياتى كما انتهت حياة كل فتاة قبلى سلمت فى نفسها من غير زواج . وبذلك قد تخلص منى روجر إلى الأبد وما من وسيلة لأن أعود إليه وأنا فى هذا المكان البعيد . وليس فى يدى غير خمسة جنيهات وقد دفع لى مقدماً أجر شهر للاقامة

سرت رعدة شديدة فى كل ناحية من نواحى كيانى عند ما طرأت لى فكرة مقابلة الناس للبحث عن عمل ، وكيف أقابل الناس وهم ينفرون من منظرى إذا رفعت نقابى . هذا إلى أن نظرة الشفقة التى تبدو فى أعينهم عند ما يرون جروحى تقع من نفسى موقع السوط الموجع . وهكذا كتب على أن أعيش وحيدة منقطعة عن الناس . وكان أخوف ما أخافه أن أعاد إلى مصحة المجانين . لذلك حفظت لسانى عن الإشارة إلى قصتى ، على الرغم من تلهف على صديق أفضى إليه بأسرار نفسى تفريجاً لما يجز فيها من ألم وحسرة

وكانت الساعة الوحيدة التى أنسى فيها همومى هى ساعة الغروب ، إذ يتلون الأفق بلون جميل ويصل صوت تخبط ماء البحر إلى أذنى كأنه نغمات الموسيقى المشجية . وكنت فى هذه الساعات أشعر بقوة غريبة وأنا أمتع نظرى بما فى الطبيعة من جمال بعيدة عن نظرات الإشفاق التى يرمقنى بها الذين يرون جروحى . وهنا كنت أشعر أن الله قريب منى فأستشعر العزاء وبدأت أدرك تدريجاً أن الله قد غفر لى ذنوبى

كما غفر لجدولين التائبة من قبل ، وأنه أحبنى كما أحبها . فتحولت الصلاة من جديد ولكن لم تكن صلاتى بالركوع إنما كانت صلاة من أعماق نفسى وكل عضو من أعضاء جسمى . فلم يكن فى الوجود من هو أحوج منى إلى صداقة هذا الصديق الذى لا يتقلب ولا يتغير . فهو لابد أن يصغى إلىّ ويسمعنى ويعزينى !

ثم تولتنى الرغبة وملأ نفسى العزم على أن أعنى بصحتى وأقوى نفسى ، فلا بد من أن أجد عملاً ، وسأتغلب على شعورى حيال هذه الجروح التى أصابتنى من جراء أدائى الواجب الإنسانى ، ومتى وجدت عملاً فسأقتصد من أجرى وأعود إلى لندن حيث أطالب بابنى وبالمولود الآخر الذى كنت واثقة من أنه لم يمت ؛ فإن الله لا يمكن أن يحرمنى أولادى

وامتلأت نفسى أملاً بأن الله سيعيننى بصورة من الصور على أن أضم ولدى إلى صدرى مرة أخرى وعلى أن أجعل من نفسى الأم التى يفخر بها أبناؤها على الرغم من الأخطاء التى وقعت فيها

ولما انتهت مدة إقامتى فى ذلك الفندق الصغير شكرت لصاحبته البؤس ضيافتها وإن لم تكن قدمت لى فى أثنائها غير الطعام والخدمة التى دفع لها أجرها ... وهبطت السلم إلى الطريق وأنا أتطلع إلى كل لوحة كتب عليها « مطلوب موظف » ولقد كنت أستجمع كل ما فى نفسى من قوة عند ما أرفع النقاب وأطلب وظيفة صرافة أو خادمة فى مطعم أو مساعدة فى حانوت أو شىء كائناً ما كان وكان الجواب الدائم على طلبى :

« لا . نحن لا نستطيع أن نستخدمك »

مع التشديد على كاف المخاطب

وكررت لنفسى المرة بعد المرة « إن الله معى ، إن الله معى » ولكن الأيام تعاقبت وهبطت الخمسة الجنيهات إلى جنيه واحد .. ثم إلى عشرة شلنات .. ثم إلى خمسة . وأخيراً ذهب البنس الأخير . وهنا شعرت بتخاذل مؤنس ، وعدت أتمنى الموت المرة بعد الأخرى ، وتولتنى الرغبة اللحة فى أن أضع حداً لحياتى التعسة . . . وخيل إلىّ أن الله نفسه قد تخلى عنى فكانت تلك أظلم ساعات حياتى . . . ومع ذلك لا بد أن الله كان فى ذلك الوقت أقرب إلىّ منه فى أى وقت مضى ، لأننى لم أستطع أن أقضى على الحياة التى وهبها لى

وقضيت ليلتين فى إحدى المتنزهات العامة ولم أتذوق طعاماً منذ ثلاثة أيام . وكان الضعف والهزال قد أخذا منى كل مأخذ عند ما دخلت مترنحة قهوة حقيرة المنظر أستجدى قطعة من الخبز أقف بها ما أحس من ألم قارس فى أمعائى . وإذ شعرت بأن ساقى تكادان تعجزان عن حملى أمسكت بالباب اتقاء السقوط وعندئذ وقعت عينى على لوحة كتب عليها « مطلوب مساعدة للمطبخ »

فدعوت الله أن يوفقنى للحصول على هذا المركز الحقير وألا يتركنى فى الطريق عرضة لمثل ما قاسيت من آلام

وحبست العبرة التى كانت تخنقنى ودخلت متهالكة ترنحنى رائحة الطعام ، وأمسكت بكرسى ونظرت حولى فى ذهول أبحث عمن أستطيع أن أستجديه العمل ، فوقعت عيناى على أغلظ وأقبح وجه رأيته فى حياتى

كان الرجل بديناً طويلاً أصلع مقدمة الرأس كث الحواجب واسع الفم وقد ابتسم ابتسامة زادته

اتساعاً ، وأردت أن أتكلم ولكن لساني خانني وكل ما استطعت عمله أن أشرت بأصبعي إلى اللوحة المعلقة عن الخادم

فسألني إن كنت أريد الخدمة عنده ولم يبد عليه أي أثر للجزع عندما رأى وجهي المشوه وقد بدت أمارات الشفقة في عينيه الزرقاوين

واحتبست الكلمات في فمي ولكن الأمل ملأ قلبي فهززت رأسي إيجاباً، وزاغ بصري عندما رأيت خادماً تحمل آنية عليها طعام إلى أحد العملاء، وعندئذ سمعت هذه الكلمات المواسية :

— حسناً ستخدمين عندي ، ولكن يجب أن تأكلي أولاً ، وسأعطيك ١٥ شلناً في الأسبوع وكل حاجتك من الطعام ...

ثم صاح :

— هات يا نيلي ...

ثم توقف متردداً ونظر إلى متسائلاً ، فأدركت أنه يريد معرفة اسمي فقلت :

— جوديت هاتون

فأمر نيلي أن تقدم إلى حساء وقهوة ثم قال لي:

— ستتناولين غذاء كاملاً بعد أن ينتهي ازدحام الظهيرة

والحق أن آندي المجوز كان حكيماً فيما صنع فقد رآني على حافة الهلاك جوعاً ولم يرد أن يرحم معدتي بالطعام قبل أن تهدأ أعصابي. على أنني كنت جد متعبة ، ولم يكن في مقدوري أن أطعم فوق ما أطعمت من الحساء . وبعد أن انتهى عمل المساء في المطبخ كنت مجهودة فلم أستطع أن أتناول سوى قدح من اللبن

وكم شكرت لآندي المجوز كرمه عندما نقدني أجر الأسبوع الأول سلفاً ؛ فقد مكنني بذلك أن أعود إلى البيت الرخيص الذي كنت أسكنه فأدفع لصاحبته أجر أسبوع متأخر علي وأجر أسبوع سلفاً ويبقى معي بعد ذلك شلن أوشلنان . وما كان أمتع ذلك الفراش الخشن الذي نمت عليه بعد الليلتين اللتين قضيتهما في المتنزه العام ، وبعد الساعات التي قضيتها في غسيل الصحون . ونمت تلك الليلة نوماً عميقاً وأنا أشكر لله حنانه وكرمه . واستيقظت في الساعة السادسة على دقات المنبه ، وقد حرصت على ألا أتأخر عن موعدي

وقضيت في عملي هذا ثلاث سنوات أعمل من منتصف الساعة السادسة صباحاً إلى الساعة التاسعة مساء ، وكان مرتبي يزيد تباعاً إلى أن بلغ جنيهاً في الأسبوع عدا الطعام . وكم حرصت على الادخار انتظاراً لليوم الذي أستطيع فيه أن أواجه روجر مكفهاي وأطالبه بابني وبمكان الطفل الذي لم أره قط

واحتفظت بعزمي على ألا أقنع وجهي وعلى أن أقابل الناس غير خجولة ولا مستحيية . وبعد أن كان هذا السفور في أول الأمر عذاباً لي ساحقاً أدركت أن النظرات القاسية وما إليها لم تكن إلا أوهاماً تخيلتها . وقد أحدث ذلك في نفسي رد فعل عجيباً فأصبحت نخورة بهذه الجروح التي لم تعد أن تكون شاهداً على أن الله قد تخيرني لإنقاذ الأرواح الطاهرة المديدة التي أنقذتها من الهلاك

وأخيراً وجدت لدي من المال ما يكفي لرحلتي ذهاباً وعودة . وتكرم المجوز آندي فمنحني إجازة أسبوع غير متسائل عن السبب

وهكذا عدت إلى المكان الذي قضيت فيه سنوات من السعادة والإثم والأحزان . وفي ثبات

دققت جرس الباب الخارجي لبيت الدكتور مكفاى وسمعت دقات قلبي عنيفة وأنا أنتظر الجواب . وكان هذا القلب قد غمرته اللهفة فهو يكاد يتفجر

ثم فتح الباب وأدخلت إلى الغرفة التى كنت أكتب فيها مسودات كتاب روجر وقلبي يطفح حبا له وسعادة بقربه

ترى ماذا يقول عند ما يرانى ؟ وهل تراه حافظاً شكله الذى أعرفه ؟ وهل ترى قد ابيض شعره الأسود ؟ وهل تخطط وجهه النحيل ؟ وهل لا تزال ابتسامته الحنون وأسلوبه الرقيق فى وضع يده بلطف على كتف الإنسان يواسيه ؟ وترى فى أى شخصية يكون حين يلقانى ؟ أتكون شخصية الطبيب الطيب الشفيق ، أم شخصية الشيطان الشرير القاسى ؟ وسرت الرعدة فى جسمي عند ما ذكرت هذه الشخصية الفظيعة وتولانى ذلك الخوف القديم ، فانكمشت حيث جلست على الكرسى أنتظر ما قدر لى

ولم تلبث أن دخلت من الباب أجمل امرأة ذهبية الشعر وقع عليها نظرى ، يخيل إلىّ أنها تناهزنى فى عدد السنين وإن كانت تبدو أصغر منى سناً ، ولم تبد منها أية أشارة تنم عن نفورها من منظر وجهى المشوه

فلما أقبلت علىّ قالت :

لا بد أن تكونى إحدى مريضات الدكتور اللواتى لم أقابلهن ، ومن الجائز أن تكونى عميلة قديمة . وإنى لآسف أن أخبرك بغيابه فى هذه اللحظة ، فقد دعى لاستشارة فى مكان بعيد ، فقد أصيب طفل مسكين إصابة بالغة فى حادث سيارة .. ولكننى أنا زوجته . ولعل هناك ما أستطيع أن أقدمه لك من الخدمات

وكان صوتها رقيقاً يخفف آلام سامعه فكان أشبه بنغمات الموسيقى الرقيقة فى نغماتها الشجية

دهشت عند سماع هذه الكلمات ، وعقدت الدهشة لسانى ، فقد جردتنى مقابلتها الرقيقة من سلاحى . فلم تسعفنى الكلمات على قول ما كنت قد اعتزمت أن أقوله وما جئت خصيصاً لأقوله . ولكننى لم أكن أتوقع أن أقابلها . . . امرأته ! لقد كنت أتوقع أن أقابل روجر نفسه . وقد حسبت الزوج الجميلة سكوتى اضطراباً فابتسمت ابتسامة خيرة وديعة واقتربت من الجدار فضغطت زر الجرس فدخلت فى الحال خادم فأمرتها بإعداد الشاى

وشعرت شعوراً غريباً وتحيرت فيما أصنع ... فلو أن هذه السيدة كانت أقل رقة أو كانت سلفة متعجرفة أو حتى كانت أقل جمالاً ، إذن لكنت شفيت نفسى بإيذائها كما أوذيت أنا من قبل : ولكن قلبى حام حولها ؛ فقد كانت أجمل وألطف وأشفق من أن تعرض للأحزان والدموع . وإذا أنا قلت لها ما كنت معتزمة أن أقول فإنما أحزن هاتين العينين الباسمتين ، وأخطط هاتين الوجنتين الناضرتين بالدموع وأزيل ابتسامة السرور عن ذلك المحيا الجميل

ثم جاءت الفكرة الثائرة ، فإنى وإن أكن أقبح منها شكلا وكان كل ما فى وجهى ينفر الناظر إليه ، فإننى أشعر فى نفسى بأننى لا أقل عنها مكانة وأننى أريد ابنى لأننى أحق به من كل إنسان . ولا بد لى أيضاً من أن أعرف مكان الوليد الآخر . أريد أن أضم ولدى وأن أشعر بسواعدهما الصغيرة تحيط بعنقى وشفاههما الرطبة تقبل شفتى ، لقد كنت أشد ما أكون حاجة إليهما وإلى حبهما ... فلم يكن لى فى الوجود شىء آخر سواهما

ولكن الكلمات لم تخرج من بين شفتى ، وجاء الشاى . نعم سأقبل دعوتها وأزود نفسى بشىء من الغذاء فقد كنت أشد ما أكون حاجة للغذاء إذ لم أفطر ولم أتغد .. ومتى تغذيت فسأجد فى نفسى الشجاعة لأخبر هذه المخلوقة الجميلة المحبوبة أى نوع من الرجال هو الذى تزوجت منه ، وسأخبرها أننى بحكم جميع القوانين التى تميز بين الحق والباطل أنا امرأته لا هى ، فهذا ما يجب أن يكون فى نظر الله لأننى أنا التى ولدت ابنيه ، ولو أن هذه الكلمات النفيسة لم يقل بها أحد من ذوى السلطان

وكنت أشعر أن كل بلغة أتبلغ بها تكاد تغصنى ، بينما كانت هذه المرأة الكريمة توالى الحديث بأسلوبها العذب الرقيق فى مودة كأننا نحن صديقتان منذ زمان بعيد ، فأثنت على الطبيب وروت بعض معجزاته فى العلاج ، فلا عجب إذا كانت مخورة به وإذا هى أحبته من أعماق نفسها — وكانت شديدة الإعجاب والحب لولديه روبرت وجودى ...

وهنا أمسكت أنفاسى ، وشعرت بألم يحز فى قلبى ، إذن كانت الوليدة الثانية بنتاً وسماها باسمى . فما من شك فى أنه يحتفظ بذكراى ... ولا بد أن يكون قد فعل ذلك حين كانت له شخصيته الرقيقة الحنون ... وعلى حين فجأة عاد إلىّ عقلى الذى كان شارداً

وقالت الزوجة :

— ولكننى أحب الطفلين كما لو كانا ابنى ، وأعتقد أننى أحبهما أكثر مما لو كانا كذلك ، لأنهما يتيمان ليس لهما والدان غيرنا ، وأنا أعرف الآن أننى لن يكون لى أولاد سواهما ، إذ قدر لى أن أعيش عاقراً ، أتحبين أن تريهما ؟

وعلى حين فجأة ألحت على أن أتناول قطعاً أخرى من السندويتش والحلوى

أتسألنى إن كنت أحب أن أراهما ؟ لقد طفرت الدموع من عينى وخرجت الألفاظ من بين شفتى على صورة ما فقلت فى تردد :

نعم بالتأكيد إنى ... إنى أحب الأطفال

وانتظرت حابسة أنفاسى أن أرى ولدى ودخل الطفلان الغرفة يد أحدهما بيد الآخر . وكان روبرت فى الخامسة من عمره آية فى الجمال فما كان أشد حنان ساعدى إلى معانقته ، وكانت جودى تحفة من التحف المحبوبة ، وكانت أشبه ما تكون بصورة فوتوغرافية لى عند ما كنت فى مثل عمرها . ولم تلبث الطفلة أن نزعت يدها من يد أخيها ووثبت على ركبتى السيدة الجميلة ، وطوقت عنقها بساعديها الصغيرتين . أما روبرت فدخل دخول الرجل الصغير ومضى مباشرة إلى أن وقف إلى جانبها فى أدب وتلهف إلى ما سيكون من تقديمه إلى ، الأمر الذى كان يتوقعه على ما يظهر

وقالت السيدة تقدمى لابنى ضاحكة :

— هذه هى ... آه إننى لم أسألك يا سيدتى عن اسمك ؟

وما أستطيع أن أشرح لماذا سميت نفسى :

— مسز سميث

وعندئذ مد روبرت يده الصغيرة القوية إلى يدى ونظرت عيناه السوداوان الصغيرتان مباشرة إلى عينى وهو يقول :

— إننى مسرور جداً أن أراك يا مسز سميث

فما كان أشد أدبه وأجله !

أما جودى الصغيرة فقد انكمشت كما لو كانت

خائفة فلما ألحت عليها أمها أقبلت على تمديدها وتقول في لهجة الطفولة :

— ما الذي سير وجهك مضحكا على هذه الصورة ؟

فقال روبرت :

— جودى . . . عيب عليك أن تقولى هذا . ألم تقل لك أمك . . .

فقلت :

لا بأس يا صغيرتى ، إن الذى صير وجهى هكذا مضحكا أنه احترق فى حريق هائلة . . .

ثم فكرت أأكون أنا الذى أروى لابنتى القصة الفاجعة ! وفجأة توقفت عن الحديث . . . ومرت أمام مخيلتى ذكريات عديدة . . . وطرأت لى أفكار لم تكن من قبل قد طرأت

لقد ذكرت هذه المرأة الجميلة فى حياتها الهنية ، وذكرت أن ولدى يعيشان فى كنفها سعيدين ممتعين بأسعد ما يتمتع به الأطفال

ورأيت غرفتى التى كانت عارية وقد أصبحت تحفة من أبدع التحف فى الأثاث والرياش

قدرت ذلك وما رأيت من عطف هذه السيدة وحبها لولدى ، وتساءلت ماذا يكون لو أنى رويت قصتى وهل يصدقوننى ، وإذا هم صدقونى فهلا أعيش دائماً كأنى غريبة عنهم ؟ !

ثم سمعت حديث السيدة مع روبرت عما يتعلق من الدروس المختلفة ومن بينها دروس الركوب ، وسمعتها تتحدث عن الطفلين وهما يصليان ، وحينئذ أدركت مبلغ الجناية التى أجنيها إذا أنا هدمت سعادة هذه الأرواح البريئة الطاهرة !

ولم ألبث أن قلت وكأنى امرأة غريبة أتحدث من مكان بعيد :

— آسف يا سيدتى إذا كنت مضطرة لتركك الآن فلا بد لى من اللحاق بالقطار . فلم يكن لدى من الوقت غير بضع ساعات ... وإنى لآسفة جداً إن لم أجد الدكتور ... لا ... إننى لن أعود ... لقد كان من حسن حظى أن لقيتك ... وداعاً أيها الرجل الصغير . وداعاً يا عزيزتى جودى

وبكى قلبى وأنا أودع طفلى الصغيرين وقلت :

— بارك الله عليكما ورعاكما

وشعرت مرة ثانية وأخيرة بهذه الأيدى الصغيرة المحبوبة بين يدى تصافحنى مصافحة الوداع

وعدت بى القطار إلى اسكتلانده حيث لا أزال أعمل فى مطبخ آندى المجوز الصديق الوحيد الذى عثرت عليه فى العالم

ولكن أيامى أصبحت سعيدة هنية لعلمى بمكان ولدى العزيزين وتفكيرى فيهما ، وأحلامى الهانئة حولهما ، وتصورى لهما ينموان عاماً بعد عام وسط السعادة التى يعيشان فيها فأتصور مراحل حياتهما الهنية كما لو كنت معهما ... وكان يزيد فى سعادتى شعورى بأنهما سعيدان فى كنف أمهما الجميلة . وإنى لأسأل الله فى كل وقت ألا تعرف هذه السيدة الطيبة شيئاً عن طبيعة زوجها الشريرة ، وأن تبقى دائماً سعيدة بشخصيته الرقيقة الكريمة ، وهى الشخصية التى أحببتها أنا أيضاً من كل أعماق قلبى . وكنت أدعو لها دعاء خالصاً بأن يديم الله عليهما حبهما وسعادتها ، وأن يبقى على حبهما وحنانها على الولد والبنت اللذين أوجدتهما أنا فى هذا العالم الدنيوى

عبد الحميد حمدى